على الغلاف

الاستحقاق الأميركي في بريطانيا: كأنه «بريكست» جديد

ينسحب بالضرورة الانقسام في الشارع البريطاني حول العلاقة بالاتحاد الأوروبي على الموقف العام من مرشّحَي الانتخابات الأميركية، كأنه فالق زلزالي بين أمتين في مملكة متحدة

السياسيون الشعبويون هم أفضل من يقرأ الانقسامات (أ ف ب)

لندن ـ **سعيد محمد**

بطبيعة الحال، لا يصوّت البريطانيون في الانتخابات الأميركية، فالولايات المتحدة استقلت عن التاج البريطاني منذ أكثر من 230 عاماً، وسيقتصر تصويت الأميركيين المقيمين في المملكة المتحدة على آلاف قليلة من الأصوات يدلون بها في سفارتهم أو بالبريد. وحتى هؤلاء لن يمثلوا أي ثقل نوعي من شأنه التأثير في نتيجة الاستحقاق الأميركي المرتقب غداً الثلاثاء.

لكن التفكير في السؤال النظري عمّن كان يمكن أن يفوز بأصوات البريطانيين لو أتيح لهم التصويت للاختيار بين دونالد ترامب وهيلاري كلينتون، يقدّم فرصة مثاليّة للنفاذ إلى العقل البريطاني المعاصر، وفهم ميكانيزمات كيفيّة تكوّن الرأي العام في "الإمبراطوريّة المتقاعدة".

تاريخياً، اهتم البريطانيون دوماً بما يحدث على الجانب الآخر من الأطلسي، وبالذات منذ فترة الخمسينيات التي بدأت تشهد موجة أمركة عالميّة غير مسبوقة نتيجة تولي الولايات المتحدة دور الإمبراطوريّة العالميّة. وقد مثلت الثقافة الأميركيّة لكثير من الشبان البريطانيين قوة تحرر من القناعات الرماديّة للحياة اليوميّة البريطانيّة، ومنفذاً آمناً لمقاومة الثقافة الارستقراطيّة القديمة. وقد أسهم ذلك، إلى جوانب عوامل اقتصاديّة واجتماعيّة محليّة أيضاً، في نشوء نوع من الثقافة الشعبويّة موازية لثقافة الطبقة المسيطرة ـ ثقافة سوقيّة ووحشيّة وشبه عفويّة لقاطني المدن الهامشيّة من غير المنتمين والمحرومين ثقافيّاً، والذين ابتدعوا، وما زالوا يبتدعون، خرافات تفوّق وانحيازات عنصريّة يواجهون بها التهديد المستمر الذين يعيشون في ظله (خطر فقدان الوظائف المحدودة والسيئة أصلاً، تهديد العلم الحديث بعدما صار أداة طيعة في يد السلطة الحاكمة، وكذلك الفساد غير المرئي بيد المهيمنين على اقتصاد البلاد).

في المقابل، بقيت طبقة من المتفوقين اجتماعياً ـ من متخرجي الجامعات المرموقة وأبناء ارستقراطيي مرحلة الإمبراطورية التي انتهت، و"شعب" مدينة الأعمال في لندن، ومصالح الرأسمال وطبقة الياقات البيضاء المرتبطة بها في لندن وعدد قليل من المدن الكبرى الأخرى، والمهاجرين الأثرياء ـ تعيش في أجواء تشبيك مع منظومة العولمة، تقدم خدمات بنكيّة واستثماريّة وثقافيّة لسوق المال الدولي، وتشترك في ثقافتها اليوميّة مع نيويورك وهونغ كونغ ودبي وباريس أكثر مما تشترك به مع سكان كوفنتري أو يورك أو نورثهامبتون.

هذا الانقسام الأيديولوجي الحاد بين أمتين (طبقتين سافرتين في المنظور الماركسي) في المملكة المتحدة بدا واضحاً خلال الاستفتاء الشعبي الذي نظّم في 23 حزيران/

> اهتم البريطانيون دوماً بما يحدث على الجانب الآخر من الأطلسي

يونيو الماضي (البريكست): نصف البريطانيين تقريباً صوتوا للخروج من الاتحاد، بينما نصفهم الآخر أراد البقاء بشدّة. في الواقع، لم يكن الاتحاد الأوروبي بحد ذاته موضوع التصويت. فبريطانيو المدن المهمشة صوتوا ضد موقف الطبقة المهيمنة دون كبير اهتمام فعلي بتفاصيل العلاقة مع أوروبا، أي ضد الطبقة التي اصطفت موضوعياً للبقاء ضمن مناخ التشبيك المعولم من خلال العلاقة مع الاتحاد الأوروبي (للمفارقة فإنّ الطبقة المهيمنة تحالفت، دون تخطيط مسبق، مع الشعوب الساعية إلى الاستقلال عن حكم الإنكليز في اسكتلندا وجبل طارق وأيرلندا الشماليّة، وإلى حد ما ويلز).

السياسيون الشعبويون هم دائماً أفضل من يقرأ مثل هذه الانقسامات، ويتفننون في توظيفها للصعود إلى حيث السلطة والنفوذ. وهكذا نشأت في بريطانيا منذ بداية القرن الحادي والعشرين أحزاب شعبوية جديدة، بل وتيارات داخل الحزب الحاكم نفسه، تخطب ودّ هذه الكتلة الشعبية المضادة للهيمنة، دون تقديم بديل أيديولوجي أو اقتصادي مقنع سوى الانعزال وبناء الجدران الوهميّة (أو الحقيقية)، وتحميل هموم الاقتصاد والفقر لقلة من المهاجرين الاقتصاديين القادمين من شرق أوروبا ومستعمرات بريطانيا السابقة. هذه الكتلة (البيضاء) من الناخبين هي التي جعلت حزباً أيديولوجياً مثل "حزب الاستقلال" يتحوّل بين يوم وليلة إلى قوة ثالثة (بعد الحزب الحاكم وحزب العمال المعارض). وهي نفس الكتلة التي تغازلها رئيسة الوزراء، تيريزا ماي، اليوم، سعياً منها إلى الحصول على شعبية تضمن بقاءها وحزبها في السلطة لعقد قادم.

ذلك كله أساسي لفهم كيف سيصوّت البريطانيون لو تسنّت لهم المشاركة في الانتخابات الأميركية. فأنصار البريكست، جميعاً ودون استثناء تقريباً، سيختارون بالضرورة دونالد ترامب (الشعبوي العالي الصوت، بطل برامج الواقع التلفزيونية، الشديد النقد للسلطة الحاكمة وللبيروقراطيين، عدو المهاجرين الأول، المتدثر بعباءة الإسلاموفوبيا وكل المختلفين، ونبي بناء الجدران العازلة). ترامب نفسه، كان قد صوّت رمزياً في حزيران الماضي لمصلحة البريكست، ودعم قرار خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي.

أما أنصار معسكر البقاء، فلا بد أن يختاروا هيلاري كلينتون، وهي ابنة الإمبراطوريّة المعولمة، وخادمة السياسات الليبراليّة، وبالتالي هي الأقدر، برأي هؤلاء، على إدارة البيروقراطية الأميركية في مواجهة التحديات العالميّة، التي تتواءم سياساتها مع الانفتاح الاقتصادي، والاتفاقات الدوليّة للتجارة العالميّة، والتقبّل (الفارغ من المضمون) للآخر. قرّاء "ذا غارديان" و"تايمز" يصلّون من أجل فوز كلينتون.

يقول مايكل كيولياناني، البروفيسور البريطاني في التاريخ الأميركي، إنّ "الطبقة السياسية في بريطانيا ترى هيلاري كلينتون خياراً آمناً يضمن الاستمرارية أكثر من ترامب". لكنه في الوقت نفسه لا ينفي وجود سياسيين شعبويين يدعمون وصول دونالد ترامب إلى السلطة.

إذن، لعلّ التصويت النظري للبريطانيين في الانتخابات الأميركيّة سيكون بمثابة تصويت على "بريكست" آخر: انقسام شديد، وحرب طبقيّة يتسلق عليها الشعبويون.

الفارق لا يزال بسيطاً... وتزايد تصويت ذوي الأصول اللاتينية

تتسارع وتيرة الحملة الانتخابية قبل يوم من الرئاسيات الأميركية، ففيما يجوب المرشح الجمهوري دونالد ترامب خمس ولايات في يوم واحد، تكثّف منافسته الديموقراطية هيلاري كلينتون زياراتها لمعاقل ديموقراطيين يجب ضمان ربحها. ووفق التقديرات، وصل ترامب إلى موقع يخوله إثارة صدمة عالمية في حال فوزه على منافسته التي لا تزال، رغم كل شيء، تتصدّر نتائج استطلاعات الرأي. وأظهر آخر استطلاع ، أجرته شبكة «ان بي سي» وصحيفة «وول ستريت جورنال»، أن كلينتون تتقدم بفارق أربع نقاط (44% مقابل 40% لترامب) على المستوى الوطني. لكنّ معدل مختلف الاستطلاعات يشير إلى فارق أقل من ذلك. كما نقلت «سي بي اس»، أمس، أن المرشحين صارا متعادلين في أوهايو وفلوريدا، وهي الولاية التي يمكن أن تقرر مصير الانتخابات الرئاسية إذا خسرها ترامب. بالنسبة إلى الأخير، التحدي واضح وهو الفوز بعدد من الولايات المتأرجحة الحاسمة، وذلك عبر حشد تأييد الناخبين من الولايات الريفية خاصة، أو حتى التمكن من الفوز بولاية تعتبر تقليدياً محسوبة على الديموقراطيين.

من هنا، يمكن فهم رغبة المرشحين في أن يجوبا البلاد حتى النهاية بوتيرة مكثفة، ويعقدا تجمعات عامة عبر تنقلات بالطائرة ومواكب سيارات. لكنْ، لا يريد رجل الأعمال الأميركي (70 عاماً) ولا السيدة الأميركية الأولى السابقة (69 عاماً) أن يظهرا كأنهما استنفدا كل طاقاتهما، فيما يؤكد المرشحان وفريقا حملتيهما أنهما ضمنا الفوز الثلاثاء.

وفي إشارة جيدة لهيلاري كلينتون، سجّلت مشاركة الأميركيين المنحدرين من أصول لاتينية، وهي القاعدة الناخبة المؤيدة للديموقراطية، تقدماً كبيراً مقارنة مع الانتخابات السابقة، وخصوصاً في فلوريدا ونيفادا، الولايتين اللتين يمكن أن تقضيا على آمال ترامب بخلافة أوباما. ووفق تحليلات الخبراء السياسيين وشركة متخصصة تستخدم معطيات الناخبين «كاتاليست»، فإن المنحدرين من أصول لاتينية صوّتوا بأعداد أعلى بمعدل مرتين مقارنة مع التصويت في فلوريدا في هذه المرحلة عام 2012، كما أوردت «سي ان ان». لكنّ هذا التوجه الإيجابي للديموقراطيين يقابله تراجع ملحوظ في نسبة مشاركة السود في التصويت، مقارنة مع الانتخابات التي كان فيها أوباما مرشحاً، وخصوصاً في كارولاينا الشمالية، وهو ما يعني أنّ البيض المؤيدين أكثر لترامب الذين أدلوا بأصواتهم حتى الآن، يعتبر عددهم نسبياً أعلى. كما أن هذا أحد الأسباب الذي دفع كلينتون إلى أن تقرر العودة الأحد إلى كليفلاند في ولاية أوهايو للمرة الرابعة في 17 يوماً.

(أ ف ب)